من فرائد الشعر الغنائي في اللغات الجرمانية

بقلم الاب رفائيل نخله اليسوعي

نشرنا في جزء تموز الى تشرين الاول ١٩٦٠ من « المشرق » مقالة طويلة على فرائد الشعر الغنائي في اللغات اللاتينية ، والحال ان امثالها في الالسن الجرمانية مساوية لها بالابداع والكثرة والتنوع ، فرأينا ان نقدم الى قراء هذه المجلة نخبة منها .

اشهر اللغات الجرمانية هي الانكليزية التي فاقت ، في عصرنا على الاخص ، سائر السن العالم بانتشارها في الحقين ، حتى بين ملايين من غير اصحابها ، في ميادين العلم والسياسة والتجارة . تليها برفعة المقام الالمانية ، ثم بدرجات متساوية واسفل جدًا ، الهولندية ، الفلمنكية التي ينطق بها قسم كبير من اهالي بلجيكة ، الاسوجية ، الدانيمركية الشديدة الشبه بالنروجية المكتوبة ، لا المتكلَّم بها ، وبهذا المقدار تشابه الهولندية والفلمنكية .

غاية الشعر التعبير الموسيقي عن الجمال ، ومن ثم لا ريب في ان الله تعالى الجميل بدون حد والمصدر الوحيد لكل جمال مخلوق ، هو اسمى المواضيع الشعرية . لقد ابدع فريدريك فون ماتيسون Matthisson von الالماني (١٧٦١ — ١٨٣١) في وصف فرط حقارة الانسان امام عظمة الله المالئة الكون « الى اقصى حدود دوران العوالم » ، والتي اجل الخلائق شبه مرآة ضئيلة تعكس لنا شعاعًا كامدًا من شمس حسنها الفتان :

« اياك يعظم ، يا كلي القدرة ، صوت تهلل الكواكب ! اياك يعظم ، يا كلي اللطف ، غناء السارونيم ! الكون بأسره حاشع ، في تآلف اجزائه المتنوع الابدي ، الى اقصى حدود دوران العوالم وسطوع ربوات الشموس .

معبدك — وهو الطبيعة — ما اشد امتلاءه بجلالك وحلمك ! حُلة زهور الربيع ومجر سنابل الصيف وتلال عنب الخريف وروابي فضة الشتاء[1] ، هي مرائي[2] قدرتك الكاملة .

---

١) يشير الشاعر الى الثلوج المتراكمة . ٢) جمع مرآة .

من انا ، يا رب ، امامك ؟ اني اتنفس منذ البارحة على الاكثر ، ولا يفصلني عن راحة الموتى سوى بون شبر ! الطوبى لي مع ذلك ؛ من رقد بالموت رقاداً هنيئاً بين ذراعي الآب ، فحقه ان يثق بكلمة الايقاظ ، وهي الرحمة »

عظمة الله تُثير فينا آلم الشعور بعدمنا المطلق ، بيد ان محبته اللامتناهية لنا قد حثته على اشراكنا في حياته الالهية ، بتأنس ابنه الوحيد ، وجعل سعادته الفائقة كل ادراك وكل مُنية ، جزاء ابدياً في ملكوته السماوي لخدمتنا القصيرة له على الارض . فلا بدع بكون امل الطوبى الكاهلة يلازمنا من المهد الى اللحد ؛ ذلك ما تغنى به فريدريك شيلر Schiller الالماني (١٧٥٩ — ١٨٠٥) :

« كثيراً ما يتحادث الناس في شأن ايام مستقبلة خير من الحاضرة ، ويحلمون بها . تراهم يركضون ، بل يتهافتون على تلك الغاية الذهبية السعيدة . العالم يشيخ ويشبّ على الدوام ، والانسان لا يزال يؤمل تحسن حاله . الامل يُدخله الحياة ؛ يرفرف حول الصبي الفارح ؛ يحسّس الفتى بضيائه الساحر ؛ لا يُدفن مع الشيخ ؛ فاذا ختم هذا في القبر سعيه المتعب ، ففي القبر ايضاً يزرع الامل ! ليس الامل وهماً فارغاً ، مملقاً ، يلده دماغ الحمقى ، فان في القلب يعلن بصوت عالٍ اننا وُلدنا لما هو خير من هذه الحياة ! وما يقوله الصوت الباطني لا يخدع النفس الآملة . »

اذا رسخ فينا رجاء امتلاك الله ، الخير الاعظم ، فمن المحال ان نميل عن حب جلاله الى الهيام بالخلائق الجذابة ، مهما اثارت فينا من عواصف الشهوات المنحرفة . قد عبّر عن هذه الحقيقة تعبيراً مطرباً عمانوئيل فون كيبل von Geibel الالماني (١٨١٥ — ١٨٨٤) .

« مهما اشتد تهديد الشتاء بحركات عجرفة ، ونثر الجليدَ والثلج حوله ، فلا بد ان يأتي الربيع . ومهما كثُف تلبد الضباب امام نظر الشمس ، فسوف توقظ بنورها العالم يوماً من الايام للنعيم .

فاعصفنّ ، يا عواصف ، اعصفن بشدة ؛ لن يخامرني خوف من ذلك ، فان الربيع يأتي — لا محالة — ماشياً في الليل على باطن قدمه الخفيف . بعدئذ

تفيق الارض مخضرّة ، وهي لا تدري كيف جرى لها ذلك ، ويعلو ضحكها الى السماء المشمسة ، وهي تكاد تموت من فرط السرور ! تضفر لذاتها اكاليل زهور وتُدخلها شعرها ، وتزدان بالورد والسنابل وتجعل الينابيع الصغيرة تسيل صافية ، كأنها دموع الابتهاج .

صه اذا وكيفما صمتت الارض ، يا قلبي ، فارضَ بذلك ، فان هناك يوم ربيع عظيماً مقدّراً للعالم اجمع ! ولو اعتراك الخوف والاشمئزاز مراراً عديدة ، كأن جهنم على الارض ، فاتكلنّ على الله اتكالاً شجاعاً ؛ لا بد ان يأتي الربيع عمّا قليل ! »

الله تعالى لا يزال ساهراً علينا بعناية ابوية محضة ، هيهات ان تقاس اليها عناية ارق الآباء باولادهم . فهي عزنا الحريز في جميع ضيقاتنا ، وعلى الاخص حين يباغتنا الموت الرهيب ، ويسلبنا كل خيراتنا الزائلة ، فيُخرجنا من الارض عُراةً كما دخلناها . قد البس هذه الحقائق المعزية ثوباً زاهياً من الخيالات المبتكرة إريك يايِر Geijer الاسوجي (١٧٨٣ — ١٨٤٧) :

« بحلمك ، يا رب ، قد فكرت فينا : ارضُنا تضيف غناك ، والحنطة التي انزلناها في حضنها تسطع في نضج ذهبي . البركة تقدر ان تعطيها انت وحدكِ ؛ عينك قد منحت بلادنا الحنطة والسميذ .

ها هي السنبلة تُصرع عند قدمنا ، وسيف الموت يصرعنا ! اُوري يأخذ حصادنا ، والقبر يأخذ الحاصد ، وربما القى فلاح بعد بضعة اعوام ، بدون علمه ، البذر على قطعة الارض التي تغطينا ! عندئذ تملكنا الارض التي ملكناها ، ويملك غيرنا مالنا ، وحول ناحية لحدنا توجد مساكن جديدة حيث تمشي اجيال جديدة . لكنك ، يا رب ، سوف تجعل في ذلك الوقت ، كما تفعل الآن ، شمسك تُشرق ، والحصائد تزين الارض .

كل الارضيات ذاهبة وزائلة بسرعة شديدة ، فلا يسوغ لنا التشكي من ذلك . في الحياة قد اختبرنا لطفك ، وسوف نختبره في الموت ، فان من اتكلوا عليك سوف يجمعون بصفة حصادك ، في مثواك ، بدون ان يهم الموت ! »

الليل الطويل الهادئ ، الذي يُريح نفوسنا واجسادنا بعد اشغال النهار

الصخاب واتعابه المضنية وكروبه العديدة ، هو رمز واضح للراحة الابدية التي يمنع الله بها نفوس اولاده الابرار عند غروب شمس حياتهم في منفاهم الارضي. من ذلك الفكر البسيط المألوف قد صاغ فريدريك روكرت Rückert الالماني (١٧٨٨—١٨٦٦) قصيدته الرائعة « نم ، يا فؤادي » ، كما يصنع النحات الماهر تمثالاً ناطقاً من الحجر الاصم :

« نم ، يا فؤادي ، بسلام ، فان الليل قد اتى خواجب الزهور التعبة بالندى المرطب . نم ، يا فؤادي ، بسلام ، فان الحياة نائمة على الارض ، والقمر ساهر في ابهة هادئة ، وهو عين الله .

نم ، يا فؤادي ، بسلام مفصولاً عن الخوف والهم ؛ ان من يُعنى بالعوالم يعتني ايضاً بقلب من القلوب . نم ، يا فؤادي ، بسلام مُبعَدًا عن الحلم السيء ، مقوّى بقدرة الايمان ، والرجاء ينظر اليك ضاحكاً . نم ، يا فؤادي ، بسلام ؛ واذا قُدّر لك الموت هنا في الليل ؛ فتكون قد استيقظت هناك ! ».

بعد الله تعالى ، الينبوع الفيّاض لكل كمال وجمال ، لا موضوع اجدر بالقريض من الفضيلة التي تطبع على الانسان ، ابن التراب بل العدم ، شيئاً فاتناً من ملامح ابيه السماوي . انما الفضيلة اعظم انتصار ، فانها غلبة النفس الروحية على الجسم المادي ، واغتنازها المتواصل بما تحرمه اياه من الاموال والملذات المحرّمة او المحالة الباطلة. الشاعر الانكليزي المفلق وليم شكسبير Shakespeare (١٥٦٤ — ١٧١٦) قد خاطب نفسه ليحثها على كبح جماح جسده ، ببضعة ابيات مزدانة بالايجاز والاعجاز :

« ايتها النفس الثاعسة ، مركز ترابي[1] الخاطئة ، انت التي تخدعك تلك القوى المتمردة الزائلة لك ، لماذا تضنين في باطنك وتقاسين المحل ، وانت تتقشفين بنفقة باهظة تجدرانك الخارجية نقشاً بديعاً ؟ لماذا تنفقين على دارك الزائلة مبالغاً فاحشاً ، مع كون مدة استئجارها قصيرة جدًا ؟ اتريدين ان تُتم إنفاقك الديدانُ ورثة إفراطك هذا ؟ اهذه عاقبة جسمك ؟

---

١) الترباء هي التراب او الارض . وقد عنى الشاعر بها الجسد .

عيشي اذاً، يا نفس، مما يخسره خادمك[1]، ودعيه يضنى لتزيدي مؤونتك. إشتري ازمنة الهية ببيع ساعات من الخبث. في داخلك اغتذي، وفي الخارج لا تكوني غنية منذ الآن. هكذا تقتدين بالموت[2] المقتدي بالبشر، واذ يكون الموت قد مات، لن يبقى ابدًا من يموت!»

...

جوهر الفضيلة حب الله مستوليًا على قلب الانسان ومحولًا الى ذاته السامية كل حب آخر للخلائق. فمن كف عن حب مولاه عاش مضطربًا، تاعسًا، خائبًا، يتضور من الجوع ويكاد يفنى من العطش، ولو ظل يبادل اجمل المخلوقات بكؤوس الهوى المسكرة. قد اختبر اكليمنضس برنتانو Brentano الالماني (١٧٧٨ — ١٨٤٢) في نفسه اعوامًا عديدة آلام تلك الخيبة المبرحة، ولم ينجُ منها الا بعودته الى حب ربه. هاكم وصفه المؤثر لاهتدائه:

« كيف؟ ايمكن ذلك؟ ايمكن ان يخبط الحب، الحب الذي لا يعرف سوى سعادة الشخص الآخر المحبوب؟ ايمكن ان يعذب ذاته وحبيبه، ان يلد الالم والنظر المندى بالدموع؟

قد رأيت عددًا لا يُحصى من الناس المضطرمين بالحب، وهم غير سعداء، مع انهم يحبون ويحَبون، يتحدون اليوم وينفصلون غدًا مثل القصب الذي تُميله كل ريح.

لقد احببت انا ايضًا، واستولى عليَّ شوق حار، واشتعل قلبي بنار قاسية. وأحببت، وحينئذ تسلط عليَّ — آه — خوف دائم وتوالت الاوجاع. كنت اشرب يومًا ما. الكوثر من الشفاه الارجوانية، وفي غده السم والموت من كل نكبة. في بحر الحب آلاف صخور طافية، وقد غرق فيه زورقي الصغير مع الف زورق آخر! وبينما كان يغرق، سمعت نوحًا خافتًا، ورأيت دموعًا — واهًا لها — جميلة كاللآلى، وقال لي قائل: « إرفع عينيك الى ذلك الطاهر[3]، وتعلّم منه فهم كنه الحب.» فاذا الامور التي كانت ملتبسة عليَّ،

---

١) الجسد.
٢) يعني بفكرة الموت والاستعداد له.
٣) يعني الشاعر الله تعالى المحب كل خلائقه.

في الاحلام دون سواها ، قد انبسطت امامي كجنان الفردوس ، وما كان يشق السُحب الدكنا. ، بين حين وآخر فقط ، شبه ثورة صاعقة ، تحت الانقاض والحرائب ، قد صار فجأةً نيرًا في اعماق نفسي ؛ وليت ذلك النور الجميل يترل ايضاً عليك ! واذا اصوات راقدة الى ذلك الوقت في باطني ، قد تحولت الى نغمات !

يوجد حب واحد فقط ، لا يمكن ان يحبط ؛ حب واحد فقط هو جوهر كل حب والرابطة الوحيدة القوية لجميع النفوس ؛ هو الحب الهادئ الامين للرب ! »

منذ سن التمييز تنقضي حياتنا الشقية في حرب ضروس بين هيامنا بالله تعالى وشغفنا باصنام الخلائق . ولا يخرج ظافرًا سالمًا من ذلك الجهاد الهائل سوى اقلية زهيدة من الابطال ؛ اما الاكثرية فهي ملايين من الجرحى بل القتلى المجندلين في المعركة . الشاعر الاميركي النابغة هنري لنكفلو Longfellow (١٨٠٧ — ١٨٨٢) يحثنا في قصيدته الخالدة « مزمور الحياة » على البطولة في هذا القتال الدائم طول حياتنا :

« لا تقل لي بابيات مكتئبة : « ليست الحياة سوى حلم فارغ ، لان النفس النائمة ميتة ، والاشياء ليست ما تظهر لنا . » الحياة حقيقية ، الحياة جدّية ، والقبر ليس غايتها ؛ « انت تراب وسوف تعود الى التراب » لم تُقل عن النفس. ليست اللذة ولا الحزن الغاية او الطريق المقدّر لنا ، بل العمل حتى يجدنا كل غد متقدمين بالنسبة الى اليوم الحاضر .

الفن طويل والوقت سريع الزوال ، وقلوبنا ، ولو كانت قوية وباسلة ، فهي مع ذلك كطبول مغطاة بما يخفض صوتها ، تدق بنغمة سير موكب جنازة الى القبر .

في معركة العالم الفسيحة ، وفي معسكر الحياة ، لا تكن كالماشية العجماء المسوقة ، بل كن بطلًا في القتال ! لا تثق بالمستقبل ، ولو حلا لك ؛ دع الماضي الميت يدفن موتاه . اما انت فاعمل ؛ اعمل في الحاضر الحي ، والشجاعة في باطنك ، والله تعالى فوق رأسك . سِيَر الرجال العظام تذكرنا اننا قادرون على

جعل حياتنا سامية ، فنخلّف عند رحيلنا آثار اقدامنا على رمل الزمان . آثار ربما رآها شخص آخر سائر على محيط الحياة الوقور ، اخ مخذول وغريـق ، فانتعشت همته . فلنكن منتصبين ودائبين على العمل ، ذوي قلوب مستعدة لكل الاقدار ، ولنتعلم الشغل والانتظار ، ونحن مواظبون على انجاز العمل ومواصلته . »

ناظم هذه القصيدة المطربة يوضح لنا في وصفه الدقيق لحياة حداد الضيعة ان جهاد الفضيلة المفروض علينا ليس سلسلة مآثر غير مألوفة ، تلفت نظر الناس وتُثير اعجاب السُذج . انما جوهره القيام الكامل بواجباتنا اليومية المصحوبة حتماً بموكب طويل من الاتعاب والاحزان ، وذلك بهمة قعساء ، لا يغلبها قط الضجر ولا الجزع ولا اليأس :

« تحت شجرة بلوط ممتدة الغصون ، يوجد معمل حداد الضيعة . الحداد رجل قوي ، ذو يدين ضخمتين عضليتين ، وعضلات ذراعيه الشديدتين تضاهي بالقوة كبولاً من حديد . شعره جعد اسود طويل ، ومحياه كالدبغ ، وجبينه مندّى بعرق النزاهة . يكسب كل ما استطاع كسبه ، وينظر الى وجه كل الناس ، لانه غير مدين لاحدهم . طول الاسبوع ، من الصباح الى المساء ، يمكنك سمع نفخة كيره . يمكنك ان تسمعه ، وهو يهز مطرقته الكبيرة الثقيلة ، ويضرب بها ضربات موزونة[1] بطيئة ، مثل واهف يدق جرس الضيعة حين قبيل شمس المساء . والاولاد العائدون من المدرسة الى بيوتهم ينظرون من باب المعمل المفتوح الى داخله . يحبون ان يروا المعمل الملتهبة ناره ، ويسمعوا دويّ الكير ، ويمسكوا الشرار المحرق المتطاير كالتبن الدقيق من البيدر .

يذهب يوم الاحد الى الكنيسة ويجلس بين صبيانه ، فيسمع الكاهن مصلياً وواعظاً ، ويسمع صوت بنته مرتلةً في جوقة مرتلي القرية ، وذلك يسر قلبه . هذا الصوت يرن له كصوت امها المترنمة في السماء ، فلا مندوحة له عن التفكر مرة اخرى فيها وفي كيفية انطراحها في القبر ، وبيده الصلبة الخشنة يمسح دمعة من عينيه .

١) هذا النعت يدل على ان بين كل ضربة والتالية وقتاً ثابتاً .

يجتاز الحياة سائراً الى الامام في الكد والسرور والحزن . كلّ صباح يراه شارعاً في شغل ، وكل مساء يراه خاتماً اياه ؛ شيء محاول وشيء متمّم قد استحقا راحة ليلة .

الشكر لك ، الشكر لك ، يا صديقي الفاضل ، على التعليم الذي علمتنيه ! هكذا في معمل حدادة الحياة الملتهبة ناره ، يجب ان تصاغ خيراتنا . هكذا يجب ان يكيَّف على سندانه الرنان كل عمل وفكر مضطرمين ! »

في « اليوم المطير » يبيّن لنا هنري لنكفلو ، بخيالات شعرية جديدة ، ان من اجمل مظاهر شجاعتنا في جهاد الحياة عدم خمود همتنا وتباطؤ سيرنا الى الامام نحو غايتنا القصوى ، حين تخيّم فوقنا الغيوم الدكناء المتلبدة ، المادية او المعنوية، ولو لم ينفذ منها الى قلبنا الكئيب الملول شعاع واحد من شمس الفرح البهيجة المنعشة :

« اليوم بارد مظلم محزن ؛ المطر هاطل والريح لا يعتريهـا قط الكلال . الكرمة لا تزال متعلقة بالحائط المتداعي ، بيد ان الاوراق الميتة تسقط عند كل هبة ريح ، واليومَ مظلم محزن .

حياتي باردة مظلمة محزنة ؛ المطر هاطل والريح لا يعتريها قط الكلال . افكاري لا تزال متعلقة بالماضي المتداعي ، بيد ان آمال الشباب تسقط كثيفة في هبة الريح ، والايام مظلمة محزنة !

إهدأ ، ايها القلب الكئيب ، وكُفّ عن بث الشكوى ، فان الشمس لا تزال ساطعة وراء الغيوم . نصيبك هو النصيب العام لكل البشر ، فلا بد ان يسقط بعض المطر في كل حياة،ولا بد ان تكون بعض الايام مظلمة محزنة ! »

حين تكتنفنا دياجي الهموم والكروب ، فتوشك ان تطفى في اعماق نفوسنا لهيب الامل الوهّاج ، فلنتذكر ان في هذا العالم نحو ثلاثة ملايين من العميان ، يقضون حياتهم في الظلام الدامس ، محرومين ملذات النظر التي هي اكثر جدّاً من مجموع ملاذ سائر الحواس . وايم الحق ما اصعب عليهم الصبر على تلك المصيبة الفادحة وقبولها بخضوع تام من يد الله ! بيد ان المولودين منهم في العمى — وهم الاكثرية — لا يتجرعون سوى قطرة من غمار آلام غيرهم ،

لجهلهم فتنة الانوار والالوان. قد وصف كولي سيبر Colly Cibber الانكليزي (١٦٧١ — ١٧٥٧) هنا هم القنوع وصفاً مؤثراً في « الفتى الاعمى » :

« آه ! قولوا لي ما هو الشيء المسمى نوراً ، الذي حُتم عليَّ الا اقتنع به ابداً ! ما هي فوائد النظر ؟ آه ! اخبروا فتاكم الاعمى التاعس !

تحدثون بأشياء عجيبة تشاهدونها ؛ تقولون ان الشمس تلوح ساطعة . اما انا فاشعر بحرها حارة ، ولكن كيف تستطيع ان توجد النهار او الليل ؟ انا ذاتي اصنع نهاري او ليلي كلما بغت او لعبت؟ ولو قدرت ان ابقى على الدوام يقظاً ، لدام النهار لي .

كثيراً ما اسمعكم ترثون بزفرات ثقيلة لمصيبتي المتعسة ، ومع ذلك لا جرم اني قادر ان احتمل بصبر خسارة لن استطيع قط معرفتها . فلا تدعوا ما لا يمكنني نيله يزيل حسن حالة نفسي ! بينما اغني هكذا ، انا ملك مع كوني فتى اعمى تاعساً ! »

من مقتضيات الفضيلة المحضة ان يضحي صاحبها بذاته تضحية كاملة دائمة لخير قريبه ، فيسقيه خمر الرفاهة والسعادة ويشرب كأس العلقم حتى الثمالة . قد بلغت ربوات الامهات ، في كل اقطار العالم ، ذروة ذلك الايثار العجيب ؛ ومن اعظم الشعراء المُجيدين وصفه كل الاجادة زكريا توپيليوس Topelius الفنلندي (١٨١٨ — ١٨٩٨) ، في قصيدته الشهيرة « امي » المنظومة باللغة السويدية :

« اين يوجد حب يثبت حتى الموت بدون تغير ، في كل تقلبات النصيب ، حب يسهر علينا مثل ملاك الله ، ولا يطلب منا شيئاً ، بل يحرم ذاته كل شيء ؟ في هذه الارض لا يوجد غير حب واحد من هذا النوع ، وهو حب الام فقط .

كل قيد يقيد القلب هو اناني : القبلة الحارة على خدَّي الفتاة المخطوبة ، الذراع اللطيفة التي تمدها اخت ، الذراع النحيفة التي يمدها الينا الطفل . ان خير صديق يتوق الى اخذ اجر صداقته ، والام وحدها طابت نفساً عن كل اجر .

متى تتذكر ما قاسته في الاعوام الطويلة من الالم الثقيل والدمع السخين ،

وفقدان ربيع صباها الذي لن يعود ، وتعب النهار وسهر الليل ، في سبيل ذلك الولد الذي نزيد حبها له بزيادة ما تبذله من العطايا لاجل سعادته ؟

ومن يستطيع منحنا مثل ما تمنحنا هي ؟ الفكرة الاولى التي يفكرها الولد ، الصلاة الاولى التي تتمتم بها شفتاه ، اللهيب الطاهر للحب الاول ، الارشاد الاول الى الحق ، الفضيلة ، الحقيقة ، الحرية والوطنية ؟

ونحن ماذا نعطيها مقابلةً لعطاياها ؟ اواه ! احزاناً كثيرة تغفرها لنا غفراناً رقيقاً ، حبنا الضعيف المقسوم على عدة اشخاص ، عنايتنا المشتتة والناوية في الغالب ، فلا تجد العزاء حتى في رؤيتنا ، بل نتركها وحدها في خريف الحياة !

مع ذلك تتبع بأفكارها الولد الضال الذي يجول بطّالاً في العالم ، وصلاتها مثل مصباح ملاك ، تسبقنا بضيائها الساطع ، حين يرتخي سيرنا ، فتنير طريقتنا بالايمان المسيحي ، فتمهد السُبل وتشيد بناء العائلات .

بركة الله على مثل تلك الام ! آه ! انه لحلاوةٌ في فيضان الدموع ، انه لفرح في كل الاوقات ان يستطيع الانسان الالتصاق الراسخ بمثل ذلك الصدر في معاركات الحياة الانانية ، وقبول لثم حبها الحار !

جازها ، اللهم ، الجزاء الذي عجزنا عن منحها اياه ! البذر الذي بذرته في اوانه هو بذرك ؛ انما الحب الذي ينعكس ضياؤه في عين الام هو حبك السامي الابدي ؛ ولذلك ، متى زال سطوع تلك العين ، نشعر كأن احدى الشموس قد غابت ! »

هنري هاينه Heine الالماني (١٧٩٧—١٨٥٦) يعترف لنا بانه قد هجر والدته ، بعدما استخف بحبها وعدّه تافهاً ، ثم هام على وجهه مستعطياً كالمتسول فُتاتاً من حب اشد والذ من حب والدته . وبعد جولانه المضني الباطل ، عاد اليها شاحب الوجه ، فارغ القلب ، فوجد في ضياء عينيها الدامعتين لهيب الحب الرقيق النزيه الذي طالما طلبه من غيرها ، فلم يعثر عليه :

« في وهمي الجنوني هجرتك يوماً ، يا امي ؛ اردت الذهاب الى اقاصي العالم ؛ اردت ان اعرف هل اجد الحب ، لكي اعتنقه بملء حبي . طلبت الحب في كل الطُرق ؛ امام كل باب مددت يدي مستعطياً حسنة حب زهيدة ،

لكن الناس لم يعطوني سوى البغض البارد ، ضاحكين عليَّ ! ظللت هائمًا على وجهي انشد الحب على الدوام ، لكني لم اجد الحب قط ، فعدت الى الدار مريضاً ، حزيناً ! غير انك اتيت ساعتئذ لمقابلتي ! آه ! ذلك الشيء الذي كان يطفو على عينيك ، هو الحب العذب الذي طالما سعيت وراءه ! »

ناظم هذه القصيدة الجميلة يُقر لنا ايضاً بان سمو فضيلة امه تقهر سطوة كبريائه ، فتُنيب الهيبة والتواضع منابها ، وتُثير فيه اشد الحزن لكونه قد جرح فؤادها المشغوف به بطعنات اهاناته العديدة :

« انا معتاد نصب رأسي عالياً جدًا ، وفي طبعي شيء من التصلب والتمرد. ولو حدّق الملك نفسه الى وجهي ، لما خفضت العينين . مع ذلك ، يا امي العزيزة ، اريد ان اجاهر باذني ، مهما انتفخ قلبي المتكبر انتفاخاً شديدًا ، فان هيبةً ملأى بالتواضع تستولي عليَّ مرارًا عديدة في جوارك السعيد العذب المحبوب .

هي روحك التي تغلبني غلبة خفية ، روحك السامية التي تنفذ بجسارة كل شيء ، وتطير الى ضياء السموات قاذفةً البروق . ويعذبني تذكري اني قد ارتكبت آثاماً كثيرة بثيرة احزنت فؤادك ، الفؤاد العجيب الذي هام بي كل الهيام ! »

من اعظم الفضائل حب الوطن ، ان لم يُحصر في نطاق ضيّق من العواطف الغريزية اللذيذة التي تحوّله الى اثَرة حقيرة ، بل سما بصاحبه الى بذل النفس والنفيس في سبيل مواطنيه . مَن احب وطنه ذلك الحب العامل النشيط ، حُق له ان يتغنى بجماله الساحر ، كما فعل رسموس ڤنتر Rasmus Winther الدانيمركي (١٧٩٦ — ١٨٧٦) ، في قصيدته « وطني » :

« الا تعرفه كل المعرفة ذلك القُطر الصغير الجميل ، الذي ينثني حول ساحله ماء البحر المالح ، وتظلله غابات الزان الهادئة ، وتنبت من ارضه سنبلة القمح شبيهةً بالذهب ؟ هل تعرفه ؟ آه ! هناك ، هناك فقط يمكن ان يكون هم الحياة وفرحها عزيزين عندي !

الا تعرفه ذلك البيت الوطني الهادئ ؟ في غرفته تجد السلام وفي حجرته

السكينة ؟ امام نافذته تهتز اوراق الزيزفون المريضة ، ويزقزق الدوري ، وتبسم الشمس فرحة. هل تعرفه ؟ هناك ، هناك فقط اقدر ان احلم احلامي واجدها مستحبة جداً !

الا تعرف ارض جدودنا القديمة ، الغنية كل الغنى بتذكاراتها الجليلة واساطيرها واناشيدها ، التي يثير صوتها الرزين في صدري الم الوحشة ولذة الشوق الحزين ؟ هل تعرفه ؟ هناك ، هناك فقط اشعر بأني على الارض اقرب ما اكون من السماء ! »

للفضيلة درجات لا حد لارتقائها نحو قداسة الله اللامتناهية . من اعلى معارجها في تاريخ العالم المسيحي ان الامبراطور شرل الخامس ، اعظم عواهل اوربة في عصره ، المالك على بلاد عديدة كبيرة في القارة المذكورة وفي العالم الاميركي الجديد مدة تسعة وثلاثين عاماً ، قد زهد زهداً كاملاً في المال والملذات والمجد ، فتخلى عن اسمى العروش واسنى التيجان ، ودخل سنة ١٥٥٦ دير يوسته (Yuste) ، الواقع في غرب اسبانية ، ليشاطر رهبانه الفقر والعفة والطاعة ، فضلاً عن صلواتهم الطويلة وتقشفاتهم الاليمة ، حباً للسيد المسيح واستعداداً للاقاته في يوم الدينونة الرهيب . قد وصف شرل فون پلاتن von Platen (١٧٩٦ — ١٨٣٥) الالماني دخول هذا العظيم القديس دير يوسته وصفاً جديراً بتخليد تلك المأثرة الرائعة :

« الوقت ليل ، والزوابع تزمجر بلا انقطاع ؛ ايها الرهبان الاسبانيون ، افتحوا لي الباب. دعوني استريح هنا الى ان توقظني دقة الجرس التي تفطسكم في برد الكنيسة لاجل الصلاة . اعدّوا لي ما يقدر عليه منزلكم : اسكيماً وقبراً. اعطوني التلّة الصغيرة وأطلعوني على اصول حياتكم ؛ قد كان لي اكثر من نصف هذا العالم ! الرأس المنقاد الآن للمقص[1] كان متوجاً بتيجان عديدة ! الكتفان المخفوضتان تحت الاسكيم قد زانهما ثوب امبراطوري من فروة القاقم ! اما الآن فاني امام الموت لشبيه بالموت ، ومنهار كالامبراطورية القديمة ! »

معظم الناس يسخرون بالابرار ويعدونهم بُلهاً بل مجانين بقدر سمو فضيلتهم

(١) المقص الذي يقص اكليل الكاهن او الراهب ، وهو دائرة جرداء في اعلى رأسه .

وكال تجردهم عن حطام الارض الفانية . ولا غرو من ذلـك ، فان اولئك الساخرين المتحذلقين مولعون بالترهات ، منهمكون في السعي وراءها ، كأنهم قد خُلقوا للتمتع بها . اما نقولا لينار Lenau الالماني (١٨٠٢ – ١٨٥٠) فقد عظم زهد النُساك ، عُشاق الله وجلادي نفوسهم واجسادهم الطاهرة ، تكفيراً عن جرائم اخوتهم الخطأة :

« آه ! لا تسخروا بالنساك الحزانى، لكونهم يعذبون جسمهم بآلام حادة ، ويحرمون ذاتهم افراح الارض المنية ، الزائلة ، المتلاشية بغاية السرعة ! بجانب الذين يحصدون بحرص علنّ الملذات ، قد خفقت عـلى الدوام ، منذ ايام الفردوس المفقود ، قلوب عديدة ، مالت عنه واحتقرت مرتع هذه الارض ! الشعور الخجول بأن الانسان كائن ساقط ، يحيد باولئك الاشخاص عن سوق الافراح الصاخب ، ويأمرهم بأن يسلكوا في الخلوة طريق الاشواك . وتزيد رزانتهم حين يرون بجانب سعادة ارضية ، لا يستحقونها ، والحياء يمنعهم عن مد يدهم اليها بوقاحة . »

لولا الموت ، الذي هو ختام تجارب الصدّيقين وباب السعادة السماوية ، جزاء انتصارهم على جميع الشهوات السافلة ، لتحتم عليهم ان يحاربوها الى الابد بلا هدنة ولا راحة ، مما يناقض عدل الله وحكمته ولطفه مناقضة مطلقة . وكما ان المُبحر في سفينة تهزها العواصف وتصدمها الامواج، يحدّق لتسكين اضطرابه الى منارة الميناء البعيد ، هكذا تثير فينا كروب العيش المتواصلة توقاً حارًا الى ميتة صالحة ، تنقلنا من غمارها الهائلة الى امن المرفإ السماوي ، حيث يشركنا الاله المعطاء في سعادته الفائقة لجميع مُنانا . قد طعنت الاشجان قلب نقولا لناو Lenau ، السابق ذكره ، طعنة نجلاء ادمته وامضّته ، ولم يستطع كشف جرحه المتزايد العمق لامه المتوفاة ، فتوسل اليها ان تنقله من دار الشقاء الى جوارها المُسعد :

« انا حامل في قلبي عبء جُرح عميق ، وقاصد ان احمله صامتاً تحت الخَرَس حتى نهاية حياتي . اشعر بقضمه العادم الكلال والمتزايد العمق على الدوام ، وبكيفية انقصاف الحياة من ساعة الى ساعة !

لا اعرف سوى امرأة واحدة كنت استطيع ان استودعها معرفة حالي واقول لها كل شيء ، لو قدرتُ ان اشهق وانشكى على عتقها ، بيد ان تلك المرأة الواحدة منسطحة ، وهي مدفونة في الارض .

يا ام ، تعالي وليؤثر فيك تضرعي ! اذا كان حبك لا يزال ساهرًا في الموت ، واذا ساغ لك ان تعتني ايضاً بولدك كما فعلت في الماضي ، فدعيني افارق هذه الحياة عن قريب ! انا تائق الى ليلة هادئة ، فساعدي الالم على تجريد ولدك التعب عن ثوب الحياة ! »

ليس موت البار سوى رحيل من المنفى الى الوطن ، ولذلك تذوب بسل تتلاشى في عذوبته الفائقة آلام النزاع ومرارات الوداع . قد وصف توما هود Hood الانكليزي (١٧٩٩—١٨٤٥) بدقة كاملة تفاصيل موت ضابط في سفينة جاب بها البحار مرارًا ، وهو قائم بوظيفته خير قيام ، الى ان وافته المنية في حجرته الضيقة :

« مشهد هائل ، جدير بالتأمل : في سفينة على بُعد فراسخ من البر ، في الحُجرة التي تنيرها بنور احمر آخر اشعة النهار ، الشاب منسطح هادئاً واخرس. لن تفضّ ابدًا دمعةُ فرح او حزن ختم هاتين العينين الثقيلتين ، ولن تنفتحا لاي غد كان . اليدان المضمومتان على صدر خال من نبضات الحمى المختلة ، تُفصحان عن راحة بلا انقطاع ، لا تستطيع لغة ارضية التعبير عنها ! ويخيَّل للناظر ان بسمة عذبة تنسو وتحوم على الشفة ، بينما الظلال في ذهاب وايابٍ بسبب حركة السفينة . في الختام قد وافت الراحة والسلام ؛ ما اشدهما وما اعظمها ! وكأن الامواج العزيزة للميت تدندن له : « قد وصلت الى دارك في النهاية ! »

يُخيَّل لجميع من ألِفوا الخلائق ووقفوا حياتهم على حبها وعبادتها ان الموت ليل اليل ، وليسوا مخطئين في ذلك التصور ، فان الموت يدهورهم في لُجة عين في ظلام جهنم الدامس وعذابها الهائل ، الى ابد الآبدين. اما وفاة الابرار فهي غروب شمس مخلوقة كثيرة النقائص ، وتجلي شمس جمال الخالق التي لا يعتريها افول . لله در يوسف بلانكو وَيت Blanco White (١٧٧٤ — ١٨٤١) ،

من نوابغ الشعر الانكليزي ، فقد حدته مخيلته القديرة الى تشبيه فرط خوف الانسان من الموت بارتياع ابيه آدم من ظلام اول ليل في حياته ، مع ان ذلك الظلام ما لبث ان كشف له آلاف بدائع عالم النجوم :

« ايها الليل الغامض ، حين عرفك والدنا الاول ، من انذار الله ، وسمع اسمك ، ألم يرتعش لهفةً على بناية السماء المستحجبة ، على ذلك السرادق البديع ، المصنوع من النور والزرقة ؟ وراء ستار من الندى الشفّاف ، غاطسةً في اشعة الشعلة الكبرى الغاربة ، وافت الزُهَرة مع جيش الكواكب ؟ ها هو الكون قد اتسع في نظر الانسان !

من كان يستطيع الظن ، ايتها الشمس ؟ ان مثل هذا الظلام كان مختفياً في اشعتك ؟ بل من كان يقدر ، وانت تُريه الزهور والاوراق والحشرات ، ان يكتشف إعماءك ايانا عن تلك النجوم التي لا عدد لها ؟ فلماذا ، والحالة هذه ، نبتعد عن الموت بجهاد مضطرب ؟ ان كان النور يقدر ان يخدعنا ، فلماذا لا تقدر الحياة ؟ »

على كل حال ليس الموت سوى ثانية جازمة تضع حدًا لا يمكن تجاوزه لحريتنا وتجاربها . امّا حياتنا ، وان بلغت اقصى مدى الهرم ، فهي اقل من ثانية بالنسبة الى الابدية التي نسير حتماً اليها . فيجب علينا تخفيف لوعتنا على وفاة اعزائنا الموتى وتواريهم عنا في دياجي القبور ، بامل تألّه حياة نفوسهم الكامل في الابدية السعيدة . قد عبّر هنري لنكفلو الاميركي عن تلك الفكرة السامية في ابيات قليلة ، اكتنا ابدع من ماسات ساطعة منتظمة على سلك من الذهب الابريز :

« خُذهم ، ايها الموت ، واذهب بكل ما تستطيع ان تسميه ملكك ؛ صورتك المطبوعة على هـذا الطين البشري تخولك ذلك الحق ، ولكن ذلك الحق وحده ! خذهم ، ايها القبر ، وأرقد جثثهم مثنية على رفوفك الضيقة ، كأنها ثياب وضعتها النفس على حدة ، ولا قيمة لها الا في عيننا . خذيهم ، ايتها الابدية الجليلة ؛ حياتنا الدنيا ليست سوى عصفة ريح ، تحني اغصان شجرتك ، فتجر ازهارك في التراب ! »

ان الله تعالى ، مبدأنا الاول وغايتنا القصوى ، قاصد ان يتجلى لنا بعد موتنا ، الى دهر الداهرين ، بكماله اللامتناهي الذي عجزنا كل العجز عن استقصاء كنهه الواحد ، فكثّرنا اسماءه ودعوناه قداسة ، علماً ، غنى ، قدرة ، عظمة ، جمالاً ، سعادة ، عدلاً ، رحمة ، حُباً ، عناية الخ . بيد ان الطبيعة التي اخرجها من العدم بمجرد ارادته الخالقة ، تحتوي في كل مظهر من مظاهرها الفتّانة ، بل في كل جزء من اجزائها التي لا يستطيع اسمى العقول كمال فهمها واحصائها ، آيةً اي علامة مُبينة لالهنا وسيدنا المالىء الكون باسره ، مع اختفائه فيه ؟ ولله در الشاعر الفيلسوف الذي عبّر عن تلك الحقيقة الجوهرية ببيته الخالد :

وفي كل شيء له آيةٌ تدل على انه الواحد !

فلا بدع بكون اعظم الشعراء الغنائيين في اشهر لغات العالم — وهي مئات — قد حاولوا قراءة اسم الله الجليل في سفر الطبيعة ، بوصفهم شيئاً يسيراً من محاسنها الآخذة بمجامع القلوب .

إسمعوا وليم ووردزوورث Wordsworth الانكليزي (١٧٧٠ — ١٨٥٠) يحدثنا عن شغفه بطير الوقواق الذي قد افعم بالفرح ، بل سحر اياماً لا تُحصى من حياته :

« يا حديث المجيء ، الفرح ، لقد سمعتك والآن اسمعك وابتهج . ايها الوقواق ، هل اسميك طيراً او صوتاً متسكعاً ؟ بينما انا منسطح على العشب ، اسمع صيحتك المزدوجة ، وكأنها تجتاز من تل الى آخر ، وهي بعيدة جداً وقريبة في الآن ذاته . مع انك تثرثر للوادي دون سواه ، في شأن ضياء الشمس والزهور ، تأتيني بوصف لساعات الرؤى[1] .

ارحب بك ثلاث مرات ، يا محبوب الربيع ! حتى الآن لستَ في نظري طيراً ، بل شيئاً لا يُرى ، صوتاً ، بسراً ! انت ذاتك الذي كنت اصغي اليه ايام كنت تلميذاً ؛ ذلك الصوت الذي جعلني التفت بالف وجهة الى الجُنب والشجر والسماء . كثيراً ما كنت اهيم على وجهي في طلبك ، وانا اجتاز

[1] وبها عنى الشاعر بذلك التعبير ساعات الوحي الشعري .

الغابات واسير على العشب القصير ، وانت مع ذلك موضوع رجاء وحب ، شائق على الدوام وغير منظور اصلاً !

ويمكنني ان اصغي اليك ايضاً ، ان انسطح على السهل واصغي الى ان أخرج ثانيةً الى حيّز الوجود ذلك العهد الذهبي . ايها الطير المبارك ، ان الارض التي غمسها تظهر لنا مرة اخرى مكاناً غير مادي ، سحرياً ، هو مثوى لائق بك !»

البر رودنباخ Rodenbach البلجيكي الفلمنكي (١٨٥٦ — ١٨٨٠) يصف لنا جمال انبلاج الفجر وطلوع الشمس في ضيعة من بلاده :

« لاح النهار على الضيعة والريف ، وناحية الشرق كلها ملتهبة ومحرقة . المروج المغشّاة بالندى مبخّرة ، والهيادب[1] متدلية بين الاشجار ، والهيادب هاربة على طول النهير ، وكل ورقة تسكب قطرة ندى .

القنبرة تشرع في الطيران الى العلاء ، وهي تغرد في اجتيازها الجو الازرق ؛ الدوري يسرق على السقوف ، والعصافير ترتزق تحت الاعشاب المضرّة ، حين قلعها ، ويغني كل ما يُسمع ويُرى .

فوق الحقل الضاحك الاخضر يطنطن الجُريس[2] الزنان البطيء الدقة ، والعمال المستيقظون عند شروق الشمس ، يتشتتون في كل جهة ، في ساحات البيوت وفي الحقول ، ويُشرع في الشغل بالصلاة والغناء ، وجميع ما يقع تحت النظر يصير حياة . »

وليم كلوس Kloos الهولندي (١٨٥٩ — ١٩٣٨) يصور لنا بكل الايجاز راحة المساء الشاملة بعد ضجة النهار المزعجة ، ثم يبوح لنا بان قلبه يأبى ان يشاطر الطبيعة سكونها الكامل :

« الزهور البيضاء ، وهي لا تكاد تُرى ، تهتز في الشفق بتأثير زفرة[3] خفيفة . انظروا كيف ينطلق ، الآن ايضاً ، امام نافذتي ، بدويّ فجائي ، طيرٌ مفرط التأخر[4] . وفي البُعد هناك السماء اللطيفة التلون كصدف اللؤلؤ ، التي تنحي

١) الهيدب سحابة متدلية بقرب سطح الارض .
٢) جريس كثيبة الضيعة .
٣) يعني نسمة من الريح شبيها بزفرة
٤) التأخر في العودة الى عشه .

فيها كل صبغة[1] امتحاء رقيقاً ...

الراحة ؛ يا لها لذة عجيبة الغرابة ، فان كل الاشياء ليست في النهار قريبة من القلب الى هذا الحد . لقد ماتت كل ضجة كانت تواصل التكلم[2] عن بُعد ؛ الريح والسُحب وكل شيء لا يزال يزداد تمهلاً ؛ كل شيء يبيت كامل السكون. ولا ادري كيف يمكن هذا الفؤاد المتناهي الضعف والسالف اللغوب ان تزيد على الدوام شدة خفقانه ، ان تزيد على الدوام ، فيأبى ان يستريح. »

قوس قزح هي بانتصابها من الارض الى السماء وارتفاعها الشامخ وكمال استدارتها وزهاء الوانها السبعة ، من ابدع محاسن الطبيعة؛ هي شبه جسر غير مادي بنته اشعّة الشمس بُعيد المطر المُضجر ، رمزًا لكون احزاننا الارضية الزائلة تؤول بنا ، اذا قبلناها بالشكر من يد الله ، الى دار الضياء الدائم والسعادة الابدية . لقد اجاد كل الاجادة في وصف تلك القوس العجيبة توما كيبل (Campbell) الانكليزي (١٧٧٧ — ١٨٤٤) :

« يا قوس الانتصار الماثلة السماء حين تأهب العواصف للابتعاد ، اني لا اسأل الفلسفة المتشائخة ان تعلمني ماهيتك . إظهري لي مع ذلك ، كما ظهرت لنظر طفولتي ، محطةً متوسطة متاحة لارواح الطوباويين ، ليتزلوا فيها بين الارض والسماء . ايمكن كل ما يعلمه علم النور ان يشرح شكلك ، بحيث اتنعم به مثل تنعمي اذ كنت احلم بجواهر وذهب مختفية في قوسك المشعّة ؟

على كل حال ليست الاحلام الماثلة للاساطير ، بل كلمات العلي التي قالت لماذا نُسجتْ المرة الاولى في السماء حُلتك المصنوعة بالاشعة . حين سطعتِ بصفة عهد رب السماء على الارض الخضراء المنقذة من الطوفان ، كيف تقدم آباء العالم الموخوطون ليرقبوا علامتك المقدسة ! يخيّل لي ان اول ترتيل منظوم قد رن على الارض المخلّصة من المحيط ، وان اول شاعر قد انشد للاحتفال بيوبيلك ونن يستطيع قريضنا ابدًا ان يحيّي باقية اشعتك بدون اختطاف الطرب! فيا موضوع نبوءة مرتقبة الى اقدم العصور ، إبقي من الآن موضوع الشاعر !

١) كل صبغة من حمرة الشفق .
٢) قد عربنا هذه الاستعارة الجريئة تعريبًا حرفيًا .

ما ابدع منطقتك الملقاة على الجبال والسهول والمدن، او المنعكسة في المحيط الرهيب الى عمق الف باع! في ذلك الافق المظلم تبدو محاسنك جديدة حديثة، كما بدت حين لما النسر في اشعتك المرة الاولى بعد انطلاقه من سفينة نوح، لان الله الامين لكتابه المقدس يعيد الى الآن بنا. انفراج قنطرتك، ولا يدع المثال الذي بشر الناس بالسلام، يشحب بسبب الشيخوخة!»

قلما نجد بين الخلائق المادية المحضة ما يضاهي البحر تمثيلاً للعظمة الالهية باتساعه الرائع، ولقدرتها باغراقه لاكبر البواخر، ولاستحالة حدوث ادنى تغير فيما بذروته على حالة واحدة، دون القارات الخمس، مع تقلبات الزمان الدائمة. لقد ابدع الشاعر المقلق اللورد جورج بيرون Byron الانكليزي (١٧٨٨—١٨٢٤)، في وصف ذلك التمثيل، ابداعاً يجعل قصيدته «الى المحيط» من اجمل منظومات اشهر الالسن:

« واصلْ دحرجة مياهك، ايها المحيط العميق والمشبّع الزرقة! الا واصلها. ان ربوات الاساطيل تهرول عليك سدى! الانسان يُعلِم على البر بالخراب، لكن سلطته تقف عند الساحل؛ اما على سهل المياه، فكل غرق هو فعلك؛ فلا يبقى ادنى اثر لتدمير الانسان سوى تدمير ذاته، حين يغوص في لجج البحر، مثل قطرة مطر، في اعماقك، نائحاً نوحاً مصحوباً بتفنغم، من دون قبر ولا دق جرس النعي ولا نعش، وهو مجهول!

اوزار الحرب التي تصعق اسوار مدن مشيدة على الصخر، حاقةً على الشعوب الارتعاش، وعلى الملوك الارتعاد في عواصمهم، البوارج الجبّارة المصنوعة بخشب السنديان، التي تجعل ضلوعُها الفاحشة مبدعها المصنوع من التراب يلقب ذاته تلقيب الكبرياء بمولاك والسيد المطلق للهيجاء، كل هذه هي لُعبك، ومثل قطعة من رُضاب الثلج، تذوب في خميرة امواجك التي تشين على السواء تعجرف ارمادا[١] وغنائم ترافلكار[٢].

١) كلمة اسبانية معناها اسطول حربي. سمى المؤرخون «ارمادا المستحيل قهرها» الاسطول الجبّار الذي سيّره فيلبس الثاني ملك اسبانية، سنة ١٥٨٨، لمحاربة انكلترة، فلاشه العاصفة.

٢) اسم رأس في اسبانية في جهة مضيق جبل طارق الشمالية الغربية، وقد انتصر في جواره الاميرال الانكليزي نلسون (Nelson) على اسطولي اسبانية وفرنسة المتحالفين، سنة ١٨٠٥.

شواطئك ممالك قد تحولت الى كل شيء سواك . اشور واليونان ورومية وقرطجنة ، ما هي ؟ مياهك قد افنتها اذ كانت حرة ، وبعدئذ عدة طغاة ، فسواحلها تخضع الآن للاجنبي او العبد او المتوحش . اما انت فعلى غير ذلك الحال ؛ تأبى التحول الا عند لهو امواجك الشديدة . الزمان لا يرسم غضناً على جبينك اللازوردي ، فتدحرجُ مياهك الآن كما رآك فجر التكوين !

انت ، يا مرآة مجيدة تنعكس فيها صورة الكلي القدرة حين العواصف ، انت الذي في كل آن ، في الهدوء او التشنج ، عند هبوب النسيم او العاصفة او الريح الزعزع ، حين جمودك في القطب او وجودك في اقاليم القيظ ، لا تزال حزيناً ، خافقاً ، بلا نهاية ، بلا حدود ، فائق الجمال ، رمز الابدية ، عرش الاله الخفي . حتى من طين قعرك تُجبل حيوانات اللجج الجبَّارة . كل منطقة تطيعك ، وانت تسير قُدماً ، رهيباً ، غير قابل السبر ، وحيداً !

ولقد شُغفت بك ، ايها المحيط ، وكان فرحي بملاهي الشباب ان اكون محمولاً الى الامام على صدرك مثل نُفّاخاتك . منذ الطفولة كنت اعبث بامواجك المتقهقرة بضجة بعد الاصطدام . كانت نعيماً لي ، واذا هيّجها اليّ البحر عند برودته ، كانت هيبتي مطربة ، لاني كنت مثل ولد من اولادك ، اثق بامواجك في كل مكان ، واضع يديَّ على لبدتك كما افعل الآن . »

لقد قيل بكل الصواب ان الهيام يوجد حتماً بعض المساواة بين المحب ومحبوبه ، ولو كان بين مقاميهما بون شاسع . ومن ثم قد حث الشغف بمحاسن الطبيعة نوابغ الشعراء على اعارتها نفساً بشرية تشاطرهم افكارهم وهمومهم ، افراحهم واحزانهم . ما اشد طرب توما مور Moore الانكليزي(١٧٧٩–١٨٥٢) باصغائه المتواتر الى احاديث اجراس المساء :

« اجراس المساء هذه ، اجراس المساء هذه ، كم من حديث تحدثنا موسيقاها عن الشباب والوطن وذلك الزمان اللذيذ الذي سمعتُ فيه آخر مرة الحانها المتآلفة ، المسكّنة ! تلك الساعات السعيدة قد مضت ، وكثير من القلوب التي كانت وقتئذ جذلة ، تسكن الآن في ظلام القبر ، فـلا تعود تسمع تلك اجراس المساء ! وهكذا يكون بعد رحيلي ؛ سترنّ دقة الاجراس الرخيمة ،

بينما يسير في هذه الاودية شعراء غيري، ويترنمون بمديحك، ياأجراس المساء اللذيذة! »

جورج موريس Morris الاميركي (١٨٠٢ — ١٨٦٤) يعدّ سنديانة اظلّته طول اعوام شبابه، صديقةً عزيزة جدًا، فينهى الحطاب عن مساسها بغأسه المحطّمة القاسية:

« يا حطاب، لا تؤذ هذه الشجرة! لا تمس غصنًا واحدًا منها، فقد اظلّتني في الشباب وسأحميها الآن. يد جدّي هي التي جعلتها في جوار كوخه، فهناك دعها، يا حطاب! يجب الا تؤذيها فأسك!

اذ لم اكن سوى صبي كسلان، كنت اطلب ظلها اللطيف. هنا ايضاً كانت اخواتي يلعبن بأتم الفرح الطافح! هنا كانت امي تلثمني وابي يصافحني. إغفر لي هذه الدمعة البلهاء، لكن دع هذه السنديانة القديمة!

ايتها الصديقة القديمة، حولك متعلقةٌ الياف قلبي، شديدة القرب منك مثل لحائك! فلا بد من ان يغرد هنا الطير البرّي ويواصل امالة اغصانك. ايتها الشجرة القديمة، ابقي على مجابهة العاصفة. اما انت، يا حطاب، فغادر هذا المكان؛ ما دامت لي يد للانقاذ، لن تؤذيه فأسك البتة! »

هنري لنكفلو الاميركي، السابق ذكره، قد سمّى تعويم سفينة تزوجها البحر، فبلغ ذروة الابتكار والاجادة في وصف العروسين يوم اقترانهما السعيد:

« لقد تم كل شيء؛ اخيرًا وافى عرس الجمال والقوة؛ اليوم تُعوَّم السفينة. السماء قد بيّضتها غيوم مجعّدة، وعلى الفُرضة تطلع الشمس الكبيرة، متهللة ومحلاة بكل حلاها البهية، لتشاهد ذلك المشهد. البحر الهرم، ابن العصور المديدة، القوي والمستقل مثل الشباب، يسير مضطربًا، من جهة الى اخرى؛ يصعد الى الرمال الذهبية وينزل منها. قلبه الخافق لا هدوء له؛ في كل فضائه الرحيب تبيّن لحيته البيضاء كالثلج مع اهتزاز صدره، بتموج غير منقطع؛ ينتظر عروسه بفروغ صبر. هي واقفة هناك، ورجلاها على الرمال، مزيّنة بالاعلام البهيجة، احتفالًا بيوم زواجها. راياتها البيضاء كالثلج ترفرف، ويختلط بعضها بالبعض، وتنسدل حولها شبه اللثام، وهي مستعدة لتكون عروس البحر الهرم الشائب. »

إرنست راوپاخ Raupach الالماني (١٧٨٤—١٨٥٢) قد رثى لفرط شقاء بنفسجة ذبلت في ريعان شبابها ، فاتقح وزعم ان الله تعالى قليل العناية بها ، فافحمته الزهرة المتواضعة ذاكرةً له كثرة النعم التي غمرها بها خالقها ، ومؤكدةً له تجدد نضارتها وازدياد حسنها في الربيع القادم :

« قلتُ امام بنفسجة ، وانا واقف بجانب ساقية ؛ قلت لبنفسجة شقية وجدتها ذابلة : « قد انقضت حياتك الجميلة! سرعان ما ذبلتِ ! كيف يسوغ للرب القاسي ان يقصر مهلة حياتك الى هذا الحد ؟ »

فقالت البنفسجة التقية : « لا توبخنّ الرب ؛ لو تشكيتُ من نصيبي ، « لاستحققت دينونة عنيفة . لقد ضفر حياتي القصيرة ، من الغيوم الى ختامها ، « بالافراح فقط ؛ ماذا اعطيته عوضاً عن ذلك ؟ جعلني انبت فرحةً بجانب هذه « الساقية الفضية ، ومنحني من اشجار ملتفة سقف اوراق واقياً . لم يترك دودة « صغيرة تقضمني ، بل جعلني اثر جميلة هيفاء ، واعطاني بعد الايام الحارة « شراب الندى المرطب . لي كان نعيم المساء ، لي كانت ابهة الصباح ؛ كانت « الشمس تلثمني في النهار ، والقمر اللطيف في الليل . فاذا انخفضتُ الآن « رويداً ، فالسنة تجري مجراها ويعود ربيع ، فأتفتح بجمال اشدّ ! »

لقد حان ختام هذه المقالة التي سداها تعريبنا الدقيق لبعض فرائد الشعر الغنائي في اللغات الجرمانية ، ولحمتها نظم تلك الدرر اليتيمة في سلك واحد يجمع شملها بعد شتاته ، ويوطد ارتباطها بترتيبها على حسب موادّها . وكما ان زائر متحف صور وتماثيل رائعة يغادره بنشوة الطرب السامية مصحوبةً بفهم اعمق لاصول التصوير والنحت ، نؤمل ان الخارجين من معرض بدائع القريض الجرماني يزيدون معرفةً لما يقتضيه الشعر المحض — وهو ملك الفنون الجميلة — من سمو الافكار ونُبل العواطف وابتكار الخيالات ، فضلاً عن وضوح التعبير وكمال انسجامه .